الفصل الرابع
داروين ونظريته حول خلق الإنسان[1]

إنّ أشهر من ضلّ وشطّ فى نظرته إلى أصل الخلق والنشوء كان "تشارلس وارنج داروين *Darwin* " الذى برز بفكرته عام (*1859*) حول أصل الأنواع ونشوء الإنسان مُنكراً أنّ وراء هذا الكون خالقاً خلقه ومعللاً الوجود بالتطور *Evolution*، تلك الفكرة التى ما أن نشرها حتى أحدثت عاصفة هوجاء من النّقاش والجدل حولها، فأيدها قوم وعارضها أو رفضها ونقضها أقوام، تلك النظرية التى سنتعرض لشرحها باختصار والتى تقول:

طوال عهود من الزمان موغلة فى القِدَم تنشأت صنوف مختلفة من الأحياء، ومضت متطورة ضاربة فى سبيل الارتقاء، كما فَنيت غيرها وبادت واندثرت منقرضة لعجزها عن مسايرة مقتضيات التطور ـ كلياً أو جزئياً ـ، أمّا من فَنى وبادَ من الأحياء فقد احتلَ مكانه غيره من الكائنات لأنها أصلح للبقاء منها، وذلك لقدرتها على تحصيل الرّزق أو مقاومة أفاعيل الطبيعة مثل الحر والرّطوبة والجفاف وغير ذلك. وهذه الصورة المتفوقة خلال بعض الأزمان عادت فأخلت السَّبيل لغيرها من الصّور الحيَّة لَمْا نَضَبَ فيها معين التَّكَيُف التى من شأنها أن توائم بين حاجات حياتها وبيئتها التى تعيش فيها.

لقد ظهرت الحياة أول ما ظهرت فى تلك الصورة الهلامية التى نسميها: الجبلة *Protoplasm*"[2] وهى المادة الحيّة الأولى التى هى الذّخيرة

(*1*) كتاب **"أصل الأنواع"** - تشارلس داروين - ترجمة إسماعيل مظهر ـ. طبعة مكتبة النهضة - بيروت وبغداد. الصفحات (39 - 45) ويسمى فيما بعد **(المرجع)**.

(*2*) أما الجبلة فهى البروتوبلازم Protoplasm: وهى مادة لزجة تُعتبر قوام الخلايا الحية، وعليها يعتمد النمو والتكاثر وعمليات حياتية أخرى. تتألف الجبلة من: النواة، الحشوة، الغشاء البلازمى

أو الأصـل الـذى تعـود إليـه كـل صـور الحيـاة مـن نبـات أو حيـوان.
فأبسط صور الحياة هو عبارة عن شذرّة صغيرة من الجبلة أو البروتوبلازم تتضمن جسماً مستديراً هو "النـواة *Nucleus*" علاوة علـى الجبلـة وهـى مـا يسميه الأحيـائيون "الخليـة *Cell*" والتـى ليس فـى استطاعة العين المجـردة رؤيتهـا دون الاسـتعانة بـالمجهر، وكـل الأحيـاء علـى إطـلاق القـول إمّـا أن تتـألف مـن خليـة واحـدة أو مـن خلايـا متعـددة، والإنسـان نفسـه لا يتعـدى أن يكون توليفة من عدد لا يحصى من الخلايا المختلفة، كما أن الحيوانات تنقسم إلى قسمين من ناحية تركيبها:

وحيدة الخلية، وتسمى " الأوالى أو البرزويات " *Protozoa*

متعددة الخلايا، وتسمى " المتزويات " *Metazoa*

إلا أنّ كافـة الموجـودات قـد نشـأ مـن أصـل واحـد وهـو "وحيـد الخليّـة

أو المصْلي. والنواة هى جسم شبه كروى يشتمل على صبغيات chloromosemes، وتؤلف الحشوة سائر الوحدة البروتوبلازمية وتشتمل عادة على حبيبيات ذات أحجام مختلفة. أما الغشاء البلازمى فيشكل سطح الوحدة، ويقع عادة بين الغلاف الخارجى القاسى نسبياً وبين مادة الحشوة ذات القوام الهلامي. أمّا الخليـة *Cell* فهـى الوحـدة البنيويـة الصـغرى التـى تتـألف منهـا جميـع الحيوانـات والنباتـات، وهـى كتلـة مـن البروتوبلازمـا، صـغيرة مجهـرى عـادةً، يحيـط بهـا غشـاء نصف مُنفذ يشتمل على (النواة *nucleus*) وعلى (الحشوة *cytoplasm*) وعلـى مـواد أحـرى غيـر حيـة، وتضـم النـواة (الصـبغيات *chromosomes*) والمورثـات (*Genes*). والكـائن الحـى قـد يكـون وحيد الخلية كالأميبة (*ameba*)، وقد يتألف من ملايين الخلايا، ويقدرون عدد الخلايا الموجودة فى جسم الإنسان بآلف مليار خلية. أما النواة *nucleus* فهى الجزء المركزى الموجب الشحنة من الذرة، والذى تدور حولـه الإلكترونـات (الشحنات السالبة) فى مداراتها المستقلة. تشتمل النواة على كامل الكتلة الذرية تقريباً لكنها لا تشغل غير حيز صغير جداً من حجم الذّرة، وتتألف النواة من بروتونات ونيوترونات، ألا أن نواة الهيدروجين تتألف من بروتون واحد فقط. أما الصبغيات أو الكروموسـات *chloromosomes*: فهـى تلـك الجسـيمات الخيطيـة التـى توجـد أزواجـا فـى نـواة الخليـة الحيوانيـة أو النباتيـة، والكروموسـات بالغـة الأهميـة لأنهـا تحمـل المورثـات أو الجينـات *genes* التى تحدد الصفات الوراثية المميزة، وعددها ثابت فى كل نـوع من الأنـواع (*species*)، ففى خلية الإنسان *23* زوجاً منها، وفى خلية الحصان *30* زوجاً، وفى خلية الأضـاليا 32 زوجـاً. أمـا المورثـات أو الجينـات (Genes) فكل جينـة جزء من الكروموسوم يحدد الصفات الوراثية المميزة فى

Protozoa "، وذلك يعنى أنّ متعددة الخلايا كانت فى أول أمرها بسيطة التّركيب، مثل: حيوان "المرجان *Corals*"، "قناديل البحر *Jelly - fish*"، "شقائق البحر *Sea - anemones*" وما إلى ذلك، وشجرة الأحياء التى اعتمدها أصحاب النظرية والتى سنثبتها لاحقاً[1] تؤكد بوضوح تام أنّ أصل الحيوانات جميعاً يعود إلى الجبلّة حسب ما قرروه فى نظريتهم.

عقيب ذلك ظهرت صور جديدة من الحيوان الدودى الصورة أو "الحيوانات الدودية *Worms* " التى نشأ منها " الرّخويات *Mollusks* " مثل: المحار *Oysters* والحلازين *Spirally* والحبّارات *Cattle - fish* التى هى نوع من هى نوع من الأسماك *fish*. ثم ظهرت " الشوكيات *Rachidians*" والتى تعرف أيضا باسم: "*Echinodermata*" مثل: "نجوم البحر *star fish*" و "قنافذ البحر *sea - urchins*"

و"خيار البحر *sea - cucumber* ". ثم تلى ذلك " القشريات *Crustaceans*" مثل: السراطين *Crabs* والجمبرى *Prawn*، ثم بعد ذلك ظهرت "الحشرات *Insects*".

ثمَّ بعد ذلك ظهرت صور جديدة من الحيوان هى عشائر ذات صفات مستحدثة دَلَّ وجودها على انقلاب كبير فى سير الحياة، فكل الحيوانات التى ذكرنا من قبل كانت رخوة القوام لينة الأجسام معدومة العظام، ولو أنّ بعضاً منها مثل السراطين وقنافذ البحر والمحار قد اختصت بأصداف تقى ذواتها من العطب، أما الصور الجديدة فكان لها حبل متين يمتد على طول الجسم ويسمى علمياً "الرّتمة *Notochord*" وكان ظهور هذا الحبل أول مدارج التطور نحو تكوين واستحداث "الفقار أو الصلب *Oxon - loin*"

(*1*) المرجع. صفحة (*41*). ارجع أيضاً إلى شجرة الأحياء ألمثبته بتصرف بعد هذا الفصل، وجدول تطور الحياة (الفصل التاسع من هذا الكتاب).

المؤلف من أجزاء عظمية كلٌ منها يسمى "فقّارة *vertebro*"، أى أنّ طبيعة العيش اقتضت استحداث تطور أو انقلاب جديد بظهور "العظام *Bones*" فظهرت أولاً الحيوانات ذات الرّتمة، وقد سميت علمياً "الرّتميات أو الحبليات *Phylum chordate*" فكانت سهمية الشّكل ومن أهل الماء وأشهرها "الاطريف" الذى يسمى أيضاً "السهيم أو الحريب *March trefoil*" ومن السهيم ظهرت "الأسماك *Fishes*".

لقد بدأ ظهور الأسماك بالصورة ذات الهيكل الغضروفى "*Cartilage*" ثم ظهر بعد ذلك "الأسماك ذات الهيكل العظمى الصلب *Skeleton* " المسماة علمياً "*Bony fish* " مثل: "الصمون *Salmon*" و "القد *Cod*" و "الفرخ *Perch*"، كما تفرع من الحريب صور أخرى مثل السباذج والجلكيات *Sea squids* وهى نوع من الأحياء لا رتمة لها، أى ليس لها حبل ظهرى إلا عندما تكون صغيرة وفى أول عهدها بالحياة.

أما الأحياء التى نشأت بعد ذلك فجميعها من ذوات الفقار *Vertebrata* وبذلك تكون الأحياء قد انقسمت إلى قسمين هما:

[*1*] الفقاريات [ذوات الفقار] *Vertebrata*

[*2*] اللافقاريات [معدومة الفقار] *Invertebrates*

ظهر بعد ذلك أسماك متطورة تستطيع أن تعيش فى الطين اللازب إذا ما غاص الماء فى فصول الجفاف، وبدلاً من أن تتنفس بخياشيمها كبقية الأسماك فقد نشأ لها مع هذا التطور جهاز آخر هو عبارة عن رئات أولية تحولت عن مثانة السّبح (العوامة) فتدرعت بجهازين للتنفس وسميت تلك الأسماك "الأسماك ذات التّنفسين *Diploids*".

ومن ذوات التّنفسين تنشأت "البرمائيات *Amphibians*" وهى الكائنات البرية المائية مثل الضفادع *Frogs* وأمثالها، وتلك الكائنات البرية المائية

تستطيع العيش على سطح اليابسة تماماً كما تستطيع العيش فى الماء.

ومن البرمائيات تنشأت "الزواحف *Reptiles*" أمثال: التماسيح *Crocodiles* والعظايا *Lizards* والحيّات *Ophidians*. ومن فرع الزّواحف تنشأت "الطيور *Birds*".

ومن الزواحف تنشأت أيضاً "الثدييات - ذوات الثدى - *Mammilla*" التى تغذى صغارها بالحليب (اللبن) **لـــذا** سموها نسبة للحليب "اللبونات *Mammals*" ثـمَّ استعيض عن هذا الإسم بآخر هو "الثدييات ذات البيوض *Egg laying Mammals*" ومن الثدييات ذات البيوض تنشأت "الجلبانيات ذوات الكيس *Pouched animals*" مثل الكنغر *Kangaroo* وغيره.

أمّا الجلبانيات فقد تفرع منها شُعَب متفرقة من الأحياء أهمها من وجهة النّظر البشرية " الصّعابير أو الليامير *Lemurs* " ومن تلك الصّعابير تنشأت:

1. ذوات] Tailed Monkeys

2. القـــردة [فاقدة الذيول] Tailless Apes

ومن نوع ما من الصّعابير نشأ "الإنسان *Man*". أمّـــا من أى من الشعوب العديدة التى تنشأت عن الصعابير تنشأ الإنسان بالتأكيد فأمر لا زال محوطاً بالشّك عند داروين وزمرته من علماء التّطور ومن واضعى نظريات النّشوء والارتقاء عموماً!!! ولكن الرّاجح عندهم أنّ سلفاً من الأسلاف البشريّة المشابهة للإنسان(1) والأرطان *Orangutan*(2) والجبن(1).

---

(1) القردة الشبيهة بالإنسان (أشباه الإنسان) *anthropoid apes*: مجموعة من الرئيسات العليا تشمل الغوريلا الشمبانزى وإنسان الغاب والجبّون، وهى قردة لا أذناب لها قادرة على السّير منتصبة القامة وبارعة فى التّسلق.

(2) الأرطان هو إنسان الغاب أو الاورانغوتان *Orangutan* وأحد " القردة الشبيهة بالإنسان ". موطنه الغابات السبخة فى بعض مناطق بورينو وسومطره. يبلغ ارتفاع الذّكر البالغ منه *137*

ثمَّ جاء "الإنسان *Man*". [2]

ويتقول بعضهم أنّ "الإنسان القرد*Ape - man*" وهو أحد الرّئيسات *Primates* المنقرضة يُعتبر حلقة متوسطة بين القردة العليا والإنسان الحديث. ويظهر من نظرياتهم أنه من الصّعابير جاء "السّغل *Dystrophy*" وهو حيوان صغير من الرّئيسات فى دماغه تلك البلديات التى على غرارها تشكل الدماغ البشري، ومما يذهب إليه بعضهم أنّ السغل قد يكون الأصل الذى نشأ منه الإنسان[3]!!!.

ويجذم القائلون بنظرية داروين أنه بالتّطور قد وُجدَت جميع الكائنات الحيّة، فخَرَجَ بعضها من بعض على طول الأحقاب الجيولوجيّة. ومما يتقوّلُ به علماء الفلك والجيولوجيا بأنّ الزّمن الذى انقضى منذ انفصال

سنتيمتراً ويبلغ وزنه نحو *75* كيلو غراماً وهو ذو ذراعين مديدتين تكادان تبلغان الأرض حين يقف منتصباً ورجلين قصيرتين نسبياً وآذنين صغيرتين وشعر بنى محمر. وإنسان الغاب شجرى العادات يقتات بالثمار فى المحل الأول.

(*1*) الجبن: نوع من القردة من مجموعة أشباه الإنسان.

(*2*) المرجع. صفحة (*44*) بتصرف.

(*3*) السّديم - الغيمة السديمية *(nebula)*: كتلة سحابية الشكل من غاز أو غبار أو كليهما معاً تكون فى الفضاء الواقع بين النجوم وتتوهج بفعل أشعة النجوم المجاورة المنعكسة عليها. **الفرضية السديمية** (*nebular hypothels*): نظرية وضعها الرياضى الفرنسى **لابلاس** عام (*1796*). تقول بأنّ الشمس نشأت عن سديم غازى ضخم ساخن دوّار، بَرَدَ شيئاً فشيئاً فتقلّص متخذاً شكل كُرة. ولقد كان من نتائج هذا التقلص أن انفصلت عن الشمس حَلقاتٌ عازية ما لبثت أن تقلصت بدَورها وشكلت الكواكب السّيارة، وهكذا نشأ النظام الشمسي. وقد أخذ علماء الفلك بهذه الفرضية طوال القرن التاسع عشر، حيث أهملت بعد التحول عنها واستبعادها. وفى نهاية القرن التاسع عشر أخذ العلماء بفرضية جديدة بدلها هى **الفرضية الكويكبية** *Planetesimal hypothesis* وهى فرضية طلع بها العالمان الأميركيان **توماس تشمبرلين وفورست مولتون،** عام (*1906*) لتفسير نشوء الكواكب السيارة. وهى تقول إنّ الشمس لم يكن لها فى الماضى السحيق كواكب سيارة تدور حولها، وأنّ كتلاً ضخمة من المادة فُصلت عنها بفعل جاذبية نجم أكبر منها، وأن هذه الكتل التى تسمى الكويكبات اتخذت لها مدرات إهليجية حول الشمس ثم اتحدت لتشكل ما يُعرف بالكواكب السيارة.

الأرض من السّديم الأصلي[1] حتى ظهور الإنسان يتراوح بين ثلاثة آلاف مليون سنة وبين خمسة عشر ألف مليون سنة، أى أنّ الفرق بين تقدير العلماء فى قياس ذلك الزّمن يبلغ اثنى عشر ألف مليون سنة فقط[2]!!!.

كان هذا تلخيصاً شاملاً لتسلسل الحياة بدءاً بالجبلة الأولى مروراً بالديدان والحشرات والبهائم والقرود وصولاً بالإنسان، كما يفترض ذلك داروين فى نظريته، فهو يرى أنه بالتطور وُجِدَت جميع الكائنات الحيّة إلى أن ظهر الإنسان، أمّا من أى القرود تنشأ الإنسان بالتأكيد - ذوات الذيول أم فاقدتها - فأمر لا يزال محوطاً بالشّك لديهم!!! ولكن الراجح لديهم أنّ سلفاً من الأسلاف البشرية المشابهة للإنسان قد تطور عنه بالتأكيد الغوريلا والشمبانزى والأرطان، ومن ثمَّ جاء بعدهم الإنسان ومن أحدهم.

إنّ هذا التسلسل العجيب للحياة وتطورها قد رُسِمَ فيما أسموه "شجرة الأحياء" نثبتها كما وردت - وبتصرف - فى كتاب داروين "أصل الأنواع"[3] مع ملاحظتين:

[1] رسمت شجرة الحياة من أسفل إلى أعلى وليس العكس، بناء على نظرية داروين "البقاء للأصلح" لذا فتقرأ من أسفل إلى أعلى وليس العكس.

[2]يؤكد داروين صحّة ما ورد فى نظريته حول الأصول الأولى للأحياء المتناهية والموغلة فى القِدَم، فى حين لا يستطيع التأكد من الأصول القريبة نوعاً، فالإنسان نشأ من الصعابير التى أنتجت القرود والسّعادين، وبالتأكيد فالإنسان قد نشأ من أحدهم، أمّا أيهم بالتأكيد على وجه التحديد؟ فلا

(*1*) المرجع. صفحة (*44*).
(*2*)
(*3*) المرجع. صفحة (41).

يستطيع التأكيد!!!.